نقد

أنس العيلة: «عناقات متأخرة» وخانقة

باريس ـ **طارق حمدان**

عشر سنوات هي المدة التي تفصل باكورة الشاعر الفلسطيني أنس العيلة «مع فارق بسيط» (2006) عن مجموعته الجديدة «عناقات متأخرة» التي صدرت أخيراً بلغة مزدوجة الفرنسية والعربية عن «دار لارماتان» الباريسية. إذن هي عناقات متأخرة فعلاً، كان يحول بينها وبين الشاعر سنون طويلة من الغربة والمقارعات الأكاديمية. سنوات طويلة في فرنسا كانت كفيلة بجعله فرنكوفونياً، ستغيره كثيراً، وستلقي ظلالها على نصوصه الجديدة، لكن من دون المساس بالشعر الذي عثرنا عليه في مجموعته الأولى.

في «عناقات متأخرة» التي كتب مقدمتها الشاعر الفرنسي فرانسي كومب، وكتب على غلافها الخلفي الشاعر الفرنسي فيليب تانسولا؛ نكاد نعثر على المواضيع القديمة ذاتها: عوالم الحب المفقود والوحدة والزمن ومآلاته ذاتها. كلها عناصر ما زالت رئيسية في نصوصه، لكننا سنعثر هذه المرة على غيوم المهجر الملبدة وسمائها الرمادية، التي تلقي بالميلانكوليا والوحدة على معظم نصوص المجموعة، حيث تنسحب الألوان وتتشوه الابتسامات: «كان علي أن أتفقد ملامحي، كلما فقد وجه الأرض لوناً جديداً، والتشبث بابتسامة مشوهة/ في هذا المدى المحتشد/ بالأجساد المائلة/ والعناقات المتأخرة». في هذه الأجواء، تتكثف الوحدة في النصوص، ويستحيل الحب إلى حدث لم يحدث أبداً: «أضعتك قبل أن يحدث شيء يشبه الحب/ وقبل أن يحدث يوماً أن نفترق». وحتى إن حدث، فهو ليس إلا وسيلة للطمأنينة لا أكثر ولا أقل: «قد يأتي الحب من المكان الذي يأتي منه الملل/ وجه يعبر مرآتنا ولا يترك أثراً أو فراغاً أو صدى/ ثم فجأة نتشبث به/ نضع صورته قرب السرير/ حيث يمنحنا مع مرور الوقت/ ما يصعب على حب جارف إعطاءه: الطمأنينة».

> سماء المهجر الرمادية انعكست ميلانكوليا ووحدة على معظم النصوص

ولدى الشاعر القتلة هم بشر مثلنا أيضاً، في كل شيء تقريباً: «يصعدون الدرج بخفة/ ويحملون الأطفال على أكتافهم/ ويحتفلون بالأعياد على طريقتنا/ ويصغون إلى الموسيقى.. ويزرعون أشجاراً حولهم/ ولهم أصدقاء كسالى/ كرماء وثرثارون/ يلجؤون إليهم في الشتاءات الطويلة». لكن «جريمتهم الوحيدة أنهم يحرموننا من كل ذلك/ حتى وإن كنا جديرين بكل هذا الألم». أما نحن فنشبههم كثيراً إلى درجة يبالغ فيها الخالق: «نحن كذلك لنا مخالب/ لكن شذبناها مع الوقت/ ودهنّاها بالمناكير/ رغباتنا متشابهة/ صرخاتنا أيضاً/ وأجسادنا التي تحوي العناصر ذاتها/ تصلح أعضاء للتبادل/ هذه شاعرية مفرطة من خالق الكون».

ويحضر الزمن الذي يفتك بنا بكامل ثقله وعافيته غير المرئية: «كان أنفك يطول أمامك/ عيناك تتسعان/ ووجهك تتباعد ملامحه/ كأناك بالتدريج/ تصبح شخصاً آخر.. وفي كل مرة تقص أظافرك/ كنت تتساءل متى طالت/ في غفلة منك». ويخص الشاعر الصداع في جزء كبير من المجموعة، إذ يصبح معادلاً لأشد الكوارث التي تهز العالم: «من المخجل حقاً/ أن تنشغل عن آلام الشعوب/ بأوجاع جانبية/ لن تبثها نشرات الأخبار/ ولن يكترث لها التاريخ/ في مسيرته الخالدة». ونكتشف أن أوجاع الشاعر تلك مصدرها أعداء غير متوقعين: «أعداؤك يجلسون معك على مائدة الطعام: النبيذ الأبيض والخبز ومشتقات الحليب.. من المؤسف أن يصبح الخبز عدواً لك.. ومن المؤسف أن تؤلمك قطعة جبن/ وأن يصبح الأكل مغامرة قد تكلفك نهاراً كاملاً من الألم».

في «عناقات متأخرة»، لا تتدفق اللغة، بل هي راكدة، وقد نشعر لوهلة بركاكة يبدو أن الشاعر (مواليد قلقيلية 1975) يعيها بل يوظفها في تشكيل نصوصه. قد نشعر بلغة باهتة أنهكتها سنوات طوال من الإقامة في فرنسا والغرق في تفاصيل العيش والحياة الأكاديمية التي «تصفعه صفحات كتبها/ وكلماتها المرصوفة كالأحجار». سنشعر لوهلة أن هذا شعر مترجم، وأن الشاعر بات يفكر بالفرنسية ويكتب بلغته الأم، ولهذا قد تكون النصوص الفرنسية المقابلة للعربية في الكتاب مشغّلة أكثر، لكننا سنشعر أيضاً أن هذه اللغة الباهتة غير المتكلفة والبعيدة عن البهرجة والبلاغة والفذلكة، هي أداة الشاعر لكتابة نصوص عن حياة وعلاقات وزمن باهت أصلاً، عن لون سماء مزعج، وصوت مطر مزعج، عن العناقات الخانقة، وصفات الناس المتعبة، وعن الابتسامات التي تتحول إلى عذاب منهك. مجموعة أنس العيلة تعانقنا أخيراً، لا بد من أن تترك على أجسادنا آثاراً بعد أن ننفك من ضغط هذا العناق.

توثيق

محمود الماجري مؤرخاً للمسرح التونسي

تونس ـ **نورالدين بالطيب**

من بين المفارقات الكثيرة في المشهد الثقافي التونسي ندرة الكتب التي تهتم بالمسرح التونسي الذي يتميز بكثافة في الإنتاج، وبتشريعات قانونية تنظّم المهنة منذ ستينيات القرن الماضي، وعراقة في التجربة تعود إلى مطلع القرن العشرين زمن الاستعمار الفرنسي.

هذه الندرة في المتابعة النقدية يحاول عدد من الجامعيين معالجتها من بينهم محمود الماجري «مدير المعهد العالي للفن المسرحي» في تونس. في تعاون مشترك بين «المعهد العالي للفن المسرحي» و«دار سحر» في تونس، أصدر الماجري أخيراً كتاباً بعنوان «مسارات نحت الذات في المسرح التونسي». يتناول الماجري في الكتاب مجموعة من القضايا المرتبطة بمسارات ما سمّاه «نحت الذات» مثل قضايا مسرح العرائس، والتكوين، والاحتراف المسرحي، والدعم المالي الرسمي، والدراما الإذاعية وعلاقتها بالمسرح، ومسرح الطفل، وقضايا التجريب والمسرح في الوسط المدرسي والجامعي. يورد محمود الماجري: «إنّه لمن المفارقات الصارخة في المسرح التونسي، كثرة الانتاج وندرة الدراسات. فالمواكب لما يخرج إلى الناس في كل سنة من أعمال مسرحية ضمن برامج العروض المألوفة أو المهرجانات المختصة، لا يمكنه إلا أن يسعد أمام هذا العدد الهائل من المسرحيات التي تتوجّه إلى كل الشرائح العمرية والاجتماعية وفي أساليب فنيّة متنوعة». ولكن هذه الكثافة والتنوع لم ينتجا مدونة نقدية تواكب المسرح التونسي.

الكتب التي اهتمت بهذا المحترف، لم تتجاوز خمسين عنواناً. يقول في هذا السياق: «كيف يمكننا تفسير وجود أقل من خمسين تأليفاً تاريخياً تحليلياً لنشاط مسرحي تجاوز عمره المئة سنة إذا اعتبرنا 1909 تاريخ أوّل عرض مسرحي تونسي، وغفلنا عن كل ما عرفته البلاد من عروض قبل ذلك التاريخ؟».

يهدف هذا الكتاب الذي يأتي بعد كتابيه المرجعيين «مسرح العرائس في تونس من ألعاب كاركوز إلى العروض الحديثة»، و«من وثائق المسرح التونسي» إلى تقديم رؤية تحاول المساهمة في تفكيك ما ألغز من أسئلة على حد تعبيره بحثاً «عن الصورة» التي سعى المسرحيون التونسيون إلى تشكيلها للمسرح التونسي في سياقه الوطني. يؤكد الماجري أنّ التحوّلات التي تعرفها البلاد منذ ست سنوات، دعت المسرحيين إلى إعادة النظر في دور المسرح والمسرحي في المنعطف الكبير الذي تعيشه تونس.

جاكلين سلام
أيتها الغربة... ماذا بعد؟

عناية جابر

في مجموعتها الخامسة «خريف يذرف أوراق التوت» (دار همايل . أبو ظبي)، تجسد الشاعرة السورية جاكلين سلام (1964) وجهة نظر شعرية تسكن جسد وروح امرأة في الخمسين تقف وحدها على حافة العالم البعيد وتسأل ذاتها كما تسأل العالم كله: ماذا بعد أيتها الغربة؟ ماذا أيها الجسد؟ ما الذي ينقص الروح؟ وماذا تريد الحرب؟ تسأل صاحبة «كريستال»: ما الذي يُنجيني ويدفعني للخلاص والارتماء في حضن الأرض التي هي أمي؟

شاعرة وكاتبة ومترجمة وصحافية، تعمل حالياً في حقل الترجمة الفورية في تورنتو (كندا)، حيث تقيم منذ عام 1997، سبق أن نشرت مقالاتها في أدبيات وصحف عربية على مدى 20 عاماً. صاحبة «جسد واحد وألف حافة» قسمت نصوصها في جديدها الى أربعة فصول: جسد وحيد على حافة الخمسين، المنفى ونهاية العالم، فصول الأنثى الثانية، أمي – الحياة. من خلال العناوين، يستطيع القارئ التعرف إلى مسار مجموعتها: خريف يذرف أوراق التوت، الذي يحمل ملامحه الدرامية المؤثرة. بالتناقض مع هذا الإيقاع الدرامي والنفسي في مجموعة سلام، نقع على خلفية ما لإيقاع ذهني بدرجة أولى، إذ لا يتوافق كل نص مثلما ظنناه لوهلة أولى، مع لوعات قصوى وحنين مفتح، وإنما مع الاعتناء بالفكرة. هذا ما يفسّر وقوعنا على نصوص شعرية طويلة نسبياً عن سابقاتها خدمة للفكرة والغاية في تقديم جزء أو زمن من حياة الشاعر في بلد اغترابها الجغرافي وفي بواطنها المنهكة من هذا الاغتراب.

في ومضات واعية، تشتغل الشاعرة على نصوصها لتبدو كلاً متكاملاً منها ومن أفكارها ومشاعرها، ويصّح الأمر مع النصوص القصيرة ذات المقاطع المعزولة بالفراغ. نصوص سلام تقترب من النثر، مع تلك المزاوجة بين إتاحات الشعر المتعارف عليه ووسائل السرد. كل ما يوجد في المجموعة من رقة وشعور بالكليات الكبرى للكون ولعالم جغرافية جسدها الصغير، يستجيب بسرد بسيط للفكرة التي تملكها الشاعرة عن الشعر.

تكرر سلام السؤال نفسه بإصرارها الملتاع: ما الذي يعنيه بيتي؟ هذا الركن الفارغ المعلق في شرق تورنتو، الخالي من الحبيب، والأولاد، والأهل؟ كتاب أبحرت من خلاله في نص عنونته: الحب في الخمسين. تقول: «أردت القول فيه وعبر خمسين قصيدة ما يُشبه هذه المرحلة الكونية التي نمر بها، وخلقت لها سياقاً نصياً تقوم فيه هواجسي ورؤاي كامرأة مغتربة في غمار مرحلة لا تكفي كل الأصابع لتعداد خيباتها ومسراتها». حاورت الشاعرة الموت ووجدته أمياً لا يقرأ القصائد، فأقامت حوارات مع كائنات مغتربة مثلها وتحاول الترويج للخلاص من خلال الدين، أو التلاشي في العدمية والفناء، كما يحتل الحب الجسدي مختلطاً بنزعة روحانية مساحة من النصوص.

تبدو واضحة إرهاصات الغربة على مفردة الشاعرة، إذ أضافت إليها نكهة المنفى اللاذعة، والوجد، والقصيدة يوم الأحد وهي تلبس قميص نوم أبيض، ونكرانها سماع الأخبار عن الحرب الدائرة في بلادها، وتلك الأيام باللون الأزرق التي تشي بعض النصوص، والسكينة الفائضة الملتبسة: «مفرداتي أشجار لا تذهب الى الحرب وتشبه حديقة أمي السورية التي تريد السلام».

نقرأ نصوص سلام المبنية على الوحدة في جذرها الأساس (على اليُتم بمعناه المجازي) فنراها منظمة مع ذلك، لكن بشكل ضيّق ومن دون أن تكون سوداوية بل مرتكزة على بعض الموضوعات الكبرى. الموضوعات التي سرعان ما تتطور انطلاقاً من ذات الشاعرة الى حالة موسيقية، دائرية، تنشد السلام والانسجام، وتناشد القوى البديلة – بديل الحرب والموت – لكي تصالحها وتمنحها الطمأنينة بشكل صاف.

بين النظام والتمرد، اختارت سلام لمجموعتها، نظاماً كتابياً يجد الإنسان مكاناً فيه، ولا يأتي التمرد هداماً، بل عبثياً وساخراً.